تشيُّؤ الإنسان في الحداثة الغربية:
قراءة نقدية في ضوء فكر عبد الوهاب المسيري

زنوتي ياسين
yassine.zannouti@edu.uiz.ac.ma
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن زهر
المملكة المغربية

الملخص:

يتناول هذا البحث إشكالية قيمة الإنسان في سياق منظومة الحداثة الغربية من خلال القراءة النقدية للمفكر عبد الوهاب المسيري وتنطلق هذه الدراسة من تساؤل مركزي: كيف أعادت منظومة الحداثة الغربية تشكيل مفهوم الإنسان وقيمته من خلال نماذجها الأنثروبولوجية؟ وما آليات تفكيك الأبعاد الروحية والأخلاقية للكائن الإنساني ضمن هذه المنظومة؟

يستعرض البحث ثلاثة نماذج أساسية أفرزتها الحداثة الغربية في تشكيل الإنسان: الإنسان الاقتصادي (اللحظة السنغافورية) حيث يتحول الإنسان إلى وحدة إنتاجية استهلاكية مجردة من أي مضمون روحي أو أخلاقي ، و وثانيها الإنسان الجسماني (اللحظة التايلاندية) الذي يُختزل في بعده الغريزي المادي بوصفه أداةً للمتعة والاستهلاك ، و ثالثهما الإنسان الطبيعي/المادي المتجلي في اللحظتين النازية والصهيونية ، حيث يُعامل الإنسان باعتباره مادةً خاماً قابلةً للتوظيف أو الإبادة وفق معايير النفعية والكفاءة الإنتاجية.

يخلص البحث إلى أن هذه النماذج الثلاثة تشترك في منطق بنيوي واحد هو نزع القداسة عن الإنسان وتجريده من أبعاده الروحية والأخلاقية، مما يؤدي إلى تقويض الظاهرة الإنسانية في جوهرها وتحويل الإنسان إلى مجرد شيء من الأشياء في عالم مادي صرف، ويبرز البحث تناقض الحداثة الغربية بين خطابها الإنساني وممارستها الفعلية المفضية إلى إفقار الذات الإنسانية وإقصائها ، بخلاف النظرة الدينية التي تكرم الإنسان وتعتبره خليفة الله في الأرض.

الكلمات المفتاحية: الحداثة الغربية، قيمة الإنسان، عبد الوهاب المسيري، النموذج المادي، الإنسان الاقتصادي، الإنسان الجسماني، الإنسان الطبيعي، نزع القداسة، اللحظة السنغافورية، اللحظة التايلاندية، اللحظة النازية/الصهيونية، الإباحية المعرفية.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مقدمة

لا تنفصل مسألة قيمة الإنسان في الفكر الفلسفي عن السياق الحضاري الذي تنشأ فيه، إذ تتشكل مضامينها وحدودها بحسب المرجعية التي تُقيم عليها كل حضارة تصورها للكائن الإنساني ، لهذا كان البحث في هذه المسألة ضمن منظومة الحداثة الغربية تحديدا أمراً يتجاوز حدود التساؤل النظري المجرد ليمس الأطر الفلسفية والأخلاقية التي يبنى عليها الفعل السياسي والاجتماعي، وقد اكتسب هذا البحث مزيدا من الإلحاح مع تعمق الهيمنة الثقافية والاقتصادية للمنظومة الغربية على المستوى الكوني، في عصر باتت فيه صورة الإنسان تعاد رسمها باستمرار عبر منطق السوق والرقمنة والاستهلاك.

وقد عرفت الإنسانية في تاريخها الطويل رؤيتين متباينتين لمعنى الوجود الإنساني وقيمته: رؤية تُؤسس على مرجعية روحية تعلو على المادة والطبيعة وإرادة القوة، وترى في الإنسان كائنا استثنائيا يحمل أمانة وجودية لا تختزل في وظيفة بيولوجية أو اقتصادية، وهو ما أرسته الرسالات السماوية حين جعلت من الإنسان مستخلفا في الأرض ومكرَما بحكم طبيعته لا بحكم إنتاجيته ، وفق قوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾[1]

وقوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾[2].

ورؤية ثانية مادية تختزل الإنسان في أبعاده البيولوجية والاقتصادية والطبيعية وتذيبه فيها، فلا تعترف له بخصوصية تتجاوز ما تحدده قوانين الاقتصاد والغريزة والعرق.

ويكشف تأمّل مسار الحداثة الغربية عن توتر داخلي حاد فقد حملت الحداثة في بداياتها مشروعا تحريريا للإنسان من "الوصاية الدينية" وسلطة التراتبية الاجتماعية، إلا أنها انتهت وفق كثير من المحللين النقديين إلى ضرب من الاختزال الأنثروبولوجي الجديد، حين أعادت تعريف الإنسان لا بوصفه ذاتاً حرة مسؤولة، بل بوصفه وحدةً منتجة أو مستهلِكة تحكمها حتميات السوق والغريزة. وقد زاد عصر العولمة والرقمنة من حدة هذه الظاهرة، إذ راحت الهويات الثقافية والمرجعيات الأخلاقية تتراجع أمام توسّع نموذج الإنسان الأحادي البعد.

في هذا السياق يندرج التفكير النقدي للمفكر المصري عبد الوهاب المسيري، الذي كرس جزءاً كبيرا من مشروعه المعرفي لفحص الأنثروبولوجيا الكامنة في الحداثة الغربية ونقدها. يرتكز المسيري على فارق جوهري يُميز بين "الحيز الإنساني" و"الحيز الطبيعي"، ويرى أن ما تُسمّيه الحداثة الغربية تقدماً ينطوي في أعماقه على إلغاء هذا الفارق وإعادة إدراج الإنسان في الطبيعة المادية، مما يفضي إلى ما يصفه بـــ"تصفية الظاهرة الإنسانية". وتبقى المسألة التي يطرحها المسيري ذات راهنية فكرية لافتة: هل يملك الإنسان المعاصر مرجعيةً تمكنه من مقاومة هذا الاختزال، أم أنه يقبع تحت سلطته دون وعي كاف بتضميناتها؟

يسعى هذا البحث إلى فحص تلك الأنثروبولوجيا المادية التي أفرزتها الحداثة الغربية بتحليل نماذجها الثلاثة الإنسان الاقتصادي، والجسماني، والطبيعي/المادي بوصفها تجليات لمشروع أنثروبولوجي واحد تتباين أشكاله وتتقاطع بنيته المعرفية.

---

[1] – الإسراء 70

[2] – البقرة30

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

أولاً: الإشكالية والأسئلة الفرعية

تتمحور إشكالية هذا البحث حول السؤال الآتي: كيف أعادت منظومة الحداثة الغربية تشكيل مفهوم قيمة الإنسان من خلال نماذجها الأنثروبولوجية، وما المنطق المعرفي الذي يفكك البعد الإنساني المتجاوز للمادة في ضوء التحليل النقدي عند عبد الوهاب المسيري؟

وتتفرع عن هذه الإشكالية تساؤلات ثلاثة: ما الخصائص البنيوية المشتركة بين النماذج التي أفرزتها الحداثة الغربية للإنسان؟ وبأي آليات يتحوّل الإنسان الاقتصادي والجسماني والطبيعي إلى مادة قابلة للاستثمار أو الإبادة؟ وهل يشكل النقد المسيري إضافة نظرية في سياق الفكر النقدي المعاصر للحداثة؟

ثانياً: المنهج المعتمد

يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي النقدي: يصف بنية المفاهيم التي يُقدّمها المسيري لنقد النماذج الأنثروبولوجية، ثم يُحلّلها في سياقاتها الفكرية والتاريخية، قبل أن يخضعها لمساءلة نقدية تكشف قيمة هذه الإضافة وحدودها في آن واحد.

المحور الأول: قيمة الإنسان داخل منظومة الحداثة الغربية

تشكل الرؤية المادية للإنسان الأساس المعرفي الذي قامت عليه منظومة الحداثة الغربية ، وهي رؤية تلغي المسافة الأنطولوجية بين الإنسان والطبيعة، و تجعله جزءا منها يتحرك بقوانينها ويخضع لصيرورتها، رغم أنها تشكلت بيد الإنسان؛ إلا أنها لم تعبر عن كل آماله وأحلامه في السيطرة على الطبيعة والتحكم فيها بل على العكس من ذلك، فقد ساهمت في القضاء على إنسانيته وتقويض عالمه الروحي،:"لقد سقط الإنسان في المنظومة المادية واخترقته مجموعة من الأحلام والأوهام والرغبات لا يدرك تضميناتها الاجتماعية والأخلاقية، رغم أنها توجه وتحدد أولوياته دون وعي منه"[1].

وتأسيسا على هذه الرؤية المادية للإنسان، يعتبر المسيري أن الحداثة الغربية أفرزت نموذجا ماديا، يضمر نزعات عدمية معادية للإنسان، فهو مشروع يصفي ظاهرة الإنسان كظاهرة متميزة في الكون، بل يراه مشروعا كافرا بالمعنى العميق للكلمة، فهو ليس كافراً بالإله وحسب؛ وإنما هو كافر بالإنسان أيضاً إذ يعلن موت الإله ثم موت الإنسان باعتباره كائنا متميزاً عن الطبيعة، ثم ينتهي به الأمر بنزع القداسة عن كل شيء وينكر المعنى. وتبعا لذلك أصبح الإنسان – الذي من المفترض أن يكون الركيزة الأساسية في الكون- مجرد شيء من الأشياء، فأفرزت منظومة قيم الحداثة الغربية إنسانا ذا بعد مادي، وطبيعي، وجسماني، يسميها المسيري باللحظات السنغافورية، والتايلاندية،والنازية/الصهيونية في تشكيل الإنسان عبر المتتالية التحديثية كما يقول المسيري: "وحتى نزيد من المقدرة التحليلية ... سنشير إلى ثلاث لحظات علمانية شاملة نماذجية مختلفة، وهي:

[1] – الإنسان والشيء- عبد الوهاب المسيري، مقال منشور على موقع الجزيرة وهو آخر مقال كتبه قبل وفاته:
https://www.aljazeera.net/opinions/2008/7/3/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%86%D8%B3%D8%A7%D9%86-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%8A%D8%A1-%D8%A2%D8%AE%D8%B1-%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84-%D9%84%D9%84%D9%85%D8%B3%D9%8A%D8%B1%D9%8A-%D9%82%D8%A8%D9%84

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

اللحظة السنغافورية ، والتي يظهر فيها الإنسان الاقتصادي. واللحظة التايلاندية، والتي يظهر فيها الإنسان الجسماني. واللحظة النازية والتي يظهر فيها الإنسان الطبيعي/المادي أو الإنسان كمادة محض"1.

المحور الثاني: الإنسان الاقتصادي واللحظة السنغافورية

والإنسان الاقتصادي من الناحية النظرية يقصد به المسيري ، إنسان آدم سميث2 أول تجليات الرؤية المادية للإنسان في المنظومة الحداثة الغربية الذي تحركه الدوافع الاقتصادية والرغبة في تحقيق الربح والثروة، وإنسان كارل ماركس3 المحكوم بعلاقات الإنتاج. وهو يعبر عن مبدأ المنفعة بحيث لا يعرف سوى مصالحه الاقتصادية، وبالتالي فهو إنسان منفصل تماما عن القيمة، شأنه شأن الطبيعة دوافعه الأساسية اقتصادية بسيطة، وهو يمثل في النظم الرأسمالية (دافع الضرائب) أما في النظم الاشتراكية فيمكن أن يكون (بطل الإنتاج)4.

وهو كما يظهر إنسان متحرر تماما من القيمة، أحادي البعد، دوافعه الأساسية اقتصادية بسيطة، وما يحركه هو القوانين الاقتصادية وحتمياتها، إنسان لاينتمي إلى حضارة بعينها، وإنما ينتمي إلى الاقتصاد العام ..وهويعرف نشاطا وحدا هو البيع والشراء ومراكمة الأموال وإنفاقها5.

أما من الناحية التطبيقية، يظهر مع اللحظة السنغافورية، حيث يتجلى فيها الإنسان الاقتصادي ذو البعد الواحد المنسلخ من الهوية بلا تاريخ ولا ذاكرة، ولا تقاليد حضارية، أو منظومات أخلاقية يقول المسيري:" ...ويتحول الإنسان إلى وحدة اقتصادية قادرة على الإنتاج والاستهلاك والبيع والشراء... وينظر الناس إلى أنفسهم لا كبشر، وإنما كوحدات إنتاجية استهلاكية6.

ويشير المسيري إلى أن سنغافورة أصبحت حلم كثير من أعضاء النخب الحاكمة في العالم الثالث التي تفهم التنمية في إطار اقتصادي محض، ..حيث هي الرؤية المهيمنة على المنظمات الدولية، مثل صندوق النقد والبنك الدولي7. ذلك أن «اللحظة السنغافورية» لحظة أمسكت بتلابيب مجتمع بأسره ..كما أن كثيراً من نظريات الإدارة في الولايات المتحدة ذات طابع سنغافوري كامل، فهي نظريات تدعو إلى إخضاع جميع حركات العامل وسكناته للدراسة حتى يمكن توظيفها تماما في خدمة الإنتاج، لكي يصبح الجميع أبطال إنتاج) . وفي ذات الوقت، تقوم الإعلانات التليفزيونية بتحويل الجميع أيضاً إلى أبطال استهلاك. والدعوة إلى السوق الشرق أوسطية في عالمنا العربي الإسلامي هي دعوة إلى تحويل الإنسان العربي الإسلامي إلى إنسان سنغافوري، بحيث تتحول كل بلادنا إلى بوتيكات وسوبر ماركت8 وقد حدث هذا ويحدث، ويكفي أن تتأمل

---

[1] – العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة،245/1

[2]– فيلسوف أخلاقي وعالم اقتصاد اسكتلندي. يُعدّ مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي ومن رواد الاقتصاد السياسي. ولد سنة 1723 وتوفي سنة 1790

[3] فيلسوف ألماني وناقد للاقتصاد السياسي ومؤرخ وعالم اجتماع ومنظر سياسي وصحفي وثوري اشتراكي؛ درس القانون والفلسفة في جامعتي بون وبرلين، ولد سنة 1818 وتوفي سنة 1883

[4] – دراسات معرفية في الحداثة الغربية ص:24

[5]– العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة 441/1 بتصرف

[6] العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية: 245/1-246 بتصرف

[7] – العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية1 ،1/ 246، بتصرف

[8] المصدر نفسه ، 246

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

العلامات التجارية المنتشرة في الأسواق والمحلات التجارية، والمطاعم والفنادق الفاخرة، وتحولت حضارة المجتمع إلى حضارة استهلاكية كما يقول جاك بيرك: " إنّ المجتمع الاستهلاكي هو المجتمع الذي لا يبحث عن المعنى، ولا يحس بضرورة المعنى، ولذا يبحث الإنسان عن معنى حياته، وعن خلاصه من خلال السعلة"1. ونتيجة لتسارع إيقاع الحياة، وانتشار المصنع والسوق كوحدات أساسية ومركزية، تهمشت القيم الأخلاقية والإنسانية والدينية، وهيمنت أخلاقيات السوق وقوانين البيع والشراء والعرض والطلب على الوجدان الإنساني2. ومثل هذه الأمور تخلق استعدادا نفسيا وذهنيا لدى المواطن للتعامل مع الواقع بشكل هندسي، آلي، كمي منفصل عن القيمة، توظف لتعظيم اللذة وزيادة المنفعة المادية، وبأن القيم الأخلاقية نسبية، وبأن البقاء للأصلح3.

إن اهتمام الحضارة الغربية بالاستهلاك المتزايد جعل البعض يطلق عليها اسم "حضارة الفوارغ anti-culture" أو "disposable" كونها تستهلك كل شيء وتوظف كل شيء، وتبدد كل شيء4. والناتج عن هذه الحضارة إنسان استهلاكي لا يشبع أبدا، يعيش في حالة جوع ونهم شديد مما يجعل السلعة بالنسبة إليه مركز الكون وليس الإنسان.5.

وهذه الثورة الاستهلاكية دفعت المسيري إلى تشبيه الإنسان الواقع تحت تأثير وتنويم الأيديولوجية الاستهلاكية بالمكنسة الكهربائية كونه يمتص السلع بشراهة غير عادية دون أن يعمل عقله، مما يفقده مقاومة الإغراءات اللذيذة، ويرضخ لإغواء سلع "حضارة الضدّ" .

المحور الثالث: الإنسان الجسماني واللحظة التايلاندية

والإنسان الجسماني يظهر مع اللحظ التايلاندية6، وهو يشبه الإنسان الاقتصادي في تركيبته وخصائصه "فهو إنسان أحادي البعد، خاضع للحتميات الغريزية، متجرد من القيمة، لايتجاوز قوانين الحركة"7 .

والإنسان الجسماني، نجد معناه عند العديد من الفلاسفة وعلماء النفس والماديين عموما، وأبرزهم عالم النفس النمساوي، سغموند فرويد8 حيث يختزل الإنسان في ": مجموعة من الأعضاء والأعصاب والانفعالات القوية المباشرة، ولكنها جميعا موجهة لتحقيق اللذة"9. فالإنسان بهذا المعنى لايعرف سوى متعته ولذاته، إنسان الاستهلاك والترف والتبذير، إنسان

---

[1]– الثقافة والمنهج ص: 318

[2] –إشكالية تشيؤ الإنسان ص: 174

[3] – العلمانية والحداثة والعولمة ، ص: 112 –113.

[4]–المصدر نفسه ص: 305– 306.

[5] – ذكر المسيري في بعض كتبه أنه ثبت أن مجموع ما استهلكته الولايات المتحدة الأمريكية في تاريخها القصير، يعادل ما استهلكه الجنس البشري عبر التاريخ، وأن كل أمريكي يستهلك ما يعادل ألف هندي، ورغم أن عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية أقل من سكان الصين، إلا أنها تستهلك أكثر من ثلاثة أضعاف ما يستهلكه الصينيون. قلت وإن كان هذه المعلومة تحتاج إلى تمحيص.

[6] نسبة إلى تايلاند، وهي بلد آسيوي أصبح قطاع البغاء فيه من أهم مصادر الدخل القومي، وتكون فيه «لوبي» قوي من ملوك البغاء والمخدرات، حتى أصبح من المستحيل الآن تخيل تايلاند بدون هذا القطاع الذي يتسم بأهميته الشديدة(العلمانية الجزئية والشاملة، 246/1)

[7]– العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية، 461/1

[8]– طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة طب الجهاز العصبي، يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي، وعلم النفس الحديث. اشتهر فرويد بنظريات العقل واللاواعي ولد سنة 1856 وتوفي سنة 1939

[9] – الحداثة وما بعد الحداثة، ص: 38.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

أحادي البعد خاضع للحتميات الغريزية، متجرد من القيمة ولا يتجاوز قوانين الحركة، لديه الكثير من المكبوتات الجنسية يسعى إلى إرضائها.

يعتبر المسيري أن اللحظة التايلاندية هي تعبير تطبيقي وفعلي للإنسان الجسماني، حيث يتحول الإنسان تماما إلى أداة للمتعة (في عصر ما بعد الحداثة والاستهلاكية العالمية)1. كما ينبه المسيري إلى خطورة المشاريع السياحية التي تشجع عليها الدول العربية ويرى أنها دعوة غير مباشرة إلى تايلاند جديدة إذ يقول:" وإذا كانت الدعوة إلى تحويل كل البلاد إلى تايلاند مسألة صعبة – إذ يفزع الناس من نزع القداسة عنهم تماما، إلا أن الحديث عن السياحة وتطوير القطاع السياحي يخبئ عادة نزعة تايلاندية عميقة يتحاشى الجميع مواجهتها!"2

المحور الرابع: الإنسان الطبيعي واللحظة النازية والصهيونية

يعرف المسيري الإنسان الطبيعي في قوله : "الإنسان الطبيعي هو الإنسان المادي أي أن الإنسان الذي يدور في إطار المرجعية الكامنة في المادة، يعيش في الطبيعة/ المادة، وعلى الطبيعة /المادة، والإنسان الطبيعي المادي يعبر عن النزعة الجنيية وعلى الاحتفاء الكامنة في المادة تعيش بالطبيعة المادة وعلى طبيعة المادة والإنسان الطبيعي المادي تعبير متبلور عن النزعة الجنية، وعن اختفاء النزعة الربانية "3.

فالإنسان الطبيعي بهذا المعنى هو الإنسان المادي، والذي يظهر مع اللحظة النازية والصهيونية والتي يظهر فيها الإنسان الطبيعي/ المادي أو الإنسان كمادة محض .

يرى المسيري أن النازية أكثر النماذج مادية، لأنها تعبير مباشر عن الإنسان الطبيعي (المادي)، إنسان مادي إمبريالي لا يكترث بالغايات والأخلاق. فالمجتمع النازي ينظر إلى البشر جميعا باعتبارهم مادة استعمالية يمكن توظيفها، ويقوم الأقوى والأصلح (من الناحية الطبيعية/ المادية) بهذه العملية لصالحه4. وانطلاقا من هذه الرؤية المادية الصارمة الترشيدية تم تقسيم البشر، إلى أشخاص نافعين منتجين وأشخاص غير منتجين مستهلكين، وتقرر إبادة بعض غير المنتجين منهم ممن لا يمكن إصلاحهم وتحويلهم إلى عناصر منتجة ونافعة5.

وبالمثل يرى المسيري اللحظة الصهيونية نموذجا للإنسان الطبيعي (المادي)، يقول في هذا السياق:"فانطلاقًا من الطبيعة (المادة)(باعتبارها المرجعية النهائية المادية)، ومن إرادة القوة وأخلاق الغاب (باعتبارها المرجعية الأخلاقية المادية)، نظرت الصهيونية إلى فلسطين باعتبارها أرضاً بلا شعب (أي أنها استبعدت العنصر الإنساني منها)، وحولت كل شيء إلى مادة: فأصبحت فلسطين أرضا تستغل، وأصبح الفلسطينيون أنفسهم مادة بشرية تنقل وتباد وتستغل، وأصبح اليهود أيضا مادة بشرية يتم تخليص أوربا منها عن طريق نقلها"6.

---

[1]– العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية، 1/ 246

[2] المصدر نفسه، 1/ 247

[3]موسوعة اليهود 73/1

[4] العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية،1/ 247

[5] المصدر نفسه،1/ 247

[6] المصدر نفسه ، 1/247-248

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ويعلق المسيري على قيمة الإنسان الذي تشكل داخل منظومة الحداثة الغربية قائلا:"واللحظات النماذجية الثلاث (السنغافورية والتايلاندية والنازية) ليست منفصلة تماما، فهي جميعا لا تعترف إلا بالطبيعة المادة، وتحول الإنسان إلى مادة نافعة، وتنزع عنه القداسة، وتعريه من إنسانيته (بالإنجليزية : دي نيود de nude) . وهو ما نسميه (الإباحية المعرفية) حيث لا حرمات ولا مطلقات، وحيث يُترك الإنسان عاريا تماما أمام مؤسسة قوية تدور في إطار المرجعية المادية الكامنة والنفعية الداروينية التي تقوم بحوسلته وتوظيفه. ... فالإنسان في اللحظة السنغافورية يتحول إلى طاقة إنتاجية ..تصب في عملية الإنتاج والاستهلاك القومي. بينما يتحول في اللحظة التايلاندية إلى طاقة جنسية تقدم خدماتها للمستهلكين من السياح، فتحسن الدخل القومي .. وفي اللحظة النازية والصهيونية يتحول الإنسان غير النافع (اليهودي كمادة بشرية فائضة) إلى مادة استعمالية تزداد إنتاجيتها في معسكرات الاعتقال والسخرة أو في الدولة الصهيونية، أو يتم التخلص منها تماما في معسكرات الإبادة حسب مقتضيات الأمور (الأمر الذي يفيد الاقتصاد الوطني كثيراً !)1 .

وقد أدى هذا المفهوم للإنسان إلى ضمور الحس الخلقي والإحساس بالمسؤولية، وإلى تزايد الإباحية والحياد والتجريد والتنميط وكما يقول ألكسيس كاريل: "إذ أن تفوق المادة ومبادئ دين الصناعة حطمت الثقافة والجمال والأخلاق"2.بل حطمت كل ما يشير إلى الإنسان في جوانبه الربانية.

[1] العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة248/1

[2]- الإنسان ذلك المجهول، ص:122

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الخاتمة

على الرغم من التباين الظاهر بين النماذج الثلاثة الاقتصادي، الجسماني، الطبيعي يرى المسيري أنها تنتمي جميعاً إلى أسرة معرفية واحدة تتقاسم بنية مفاهيمية متجانسة. يقول في هذا الصدد: "اللحظات النماذجية الثلاث ليست منفصلة تماماً، فهي جميعاً لا تعترف إلا بالطبيعة/المادة، وتحوّل الإنسان إلى مادة نافعة، وتنزع عنه القداسة، وتُعرّيه من إنسانيته". ويُطلق على هذه العملية مصطلح "الإباحية المعرفية"، أي ذلك الوضع الأنثروبولوجي الذي لا مطلقات فيه ولا حرمات، ويُترك فيه الإنسان عارياً أمام مؤسسات الهيمنة المادية.

ولعل أبلغ ما يُبيّنه المسيري هو التقابل الوظيفي بين اللحظات الثلاث: ففي اللحظة السنغافورية يتحول الإنسان إلى طاقة إنتاجية تنتج وتستهلك لصالح الناتج القومي، وفي اللحظة التايلاندية يتحول إلى طاقة جنسية تحسن الدخل القومي عبر صناعة السياحة، وفي اللحظة النازية/الصهيونية يتحول إلى مادة استعمالية تزداد إنتاجيتها في المعسكرات أو يُتخلص منها تماماً إذا انعدمت إنتاجيتها. ثمة في هذا التقابل كشف تحليلي مُقلق، مفاده أن الرأسمالية الاستهلاكية وعسكرة الإبادة ينتميان إلى مشروع أنثروبولوجي واحد هو تحويل الإنسان إلى مادة، ولا يتمايزان إلا في الأداة والسياق.

وما يُضيفه المسيري إلى النقد المعاصر للحداثة كنقد مدرسة فرانكفورت، أو نقد فوكو ودريدا هو ربطه البنيوي بين هذه النماذج المتفرقة في إطار واحد مفسِر مما يُضفي على رؤيته قوة تفسيرية استثنائية ، فبدلا من التوقف عند نقد جزئي للرأسمالية أو للفاشية أو للاستهلاكية الجنسية بوصفها ظواهر مفردة، يقدم المسيري مفتاحاً معرفيا واحدا يُفسر الكل بالكل، وهو مفهوم "المرجعية الكامنة" المادية الإمانينتية.

و خلص هذا البحث إلى جملة من النتائج التحليلية الجوهرية التي يمكن إيجازها علىالنحو الآتي:

أولاً: تشكل منظومة الحداثة الغربية، من منظور المسيري، مشروعا أنثروبولوجياً متكاملا يقوم على إلغاء التمييز الجوهري بين الإنسان والطبيعة، وما يترتب على ذلك من تآكل تدريجي لمفهوم القيمة الإنسانية المتجاوِزة.

ثانياً: تمثّل النماذج الثلاثة الإنسان الاقتصادي، والجسماني، والطبيعي/المادي تجليات وظيفية لهذا المشروع الأنثروبولوجي المادي، تتباين في أشكالها التاريخية والتطبيقية، وتتحد في بنيتها المعرفية الجوهرية القائمة على نزع القداسة عن الظاهرة الإنسانية.

ثالثاً: يكمن الإسهام المعرفي المميز للمسيري في تطوير أداة تحليلية(مفهوم النموذج المعرفي/النماذجي) مكن من كشف الوحدة البنيوية الخفية التي تجمع بين ظواهر حداثية متباينة، كالاستهلاكية الليبرالية والاستبداد الفاشي والاستعمار الصهيوني.

رابعاً: يطرح نقد المسيري للحداثة الغربية ضمنياً بديلاً معرفياً يرتكز على استعادة البعد المتجاوِز للطبيعة في تعريف الإنسان وهو بُعد لا يقدر الحسابُ المادي على استيعابه أو اختزاله.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المصادر والمراجع:

- ✓ **أولاً: القرآن الكريم**
- ✓ **ثانياً: المصادر**

- المسيري، عبد الوهاب .(1999) .*موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد* (مج. 1–8). دار الشروق.
- المسيري، عبد الوهاب .(2002) .*العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة* (مج. 1–2). دار الشروق.
- المسيري، عبد الوهاب .(2003) .*الحداثة وما بعد الحداثة* .دار الفكر.
- المسيري، عبد الوهاب .(2006) .*دراسات معرفية في الحداثة الغربية* .مكتبة الشروق الدولية.
- المسيري، عبد الوهاب. (2008، يوليو 3). الإنسان والشيء: آخر مقال للمسيري قبل وفاته .*الجزيرة نت* . https://www.aljazeera.net/opinions/2008/7/3/الإنسان-والشيء-آخر-مقال-للمسيري-قبل
- المسيري، عبد الوهاب .(2010) .*العلمانية والحداثة والعولمة* .دار الشروق.
- المسيري، عبد الوهاب . (2024) *الثقافة والمنهج* .(حوارات) تحرير سوزان حرفي، دار دون للنشر والتوزيع .
- قارة، صباح .(2012) .*إشكالية تشيّؤ الإنسان من منظور عبد الوهاب المسيري* [رسالة ماجستير غير منشورة]. جامعة فرحات عباس، سطيف.
- كاريل، ألكسيس. (2019). *الإنسان ذلك المجهول* ترجمة عادل شفيق، آفاق للنشر والتوزيع.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/